سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ : ما يدخل فيها من مطر وغيره .

وَمَا يَعْرُجُ : ما يصعد من الملائكة والأعمال .

إن الكون دليل خالقه المبدع ، فاتساعه الرهيب يدلنا على عظمة الخالق ، وكونه على أتم درجةٍ من التناسق والانسجام يعرفنا بأن مبدعه وجود كامل متكامل ، وكون أجزائه كلها تسير وتؤدي وظائفها بمنتهى التوافق ، بحيث لا يقع في سيرها أدنى خللٍ أو اضطرابٍ أبداً ، يبرهن على أن القائم بإدارته وتدبير شئونه ذو حكمةٍ وعلمٍ لا ينتهيان . وكونه ملائماً للإنسان إلى الحد الأقصى ، مما يوضح أن خالقه كريم ورحيم بمخلوقاته بلا حدودٍ ، والذي يتأمل في الكون بجديةٍ وإمعانٍ سوف لا يلبث أن يغمره شعور عارم بجلال الله وكماله ، وسوف يخرج من تأملاته مقتنعاً اقتناعاً لا يمازجه شك أن كل الأمجاد ومظاهر العظمة والكبرياء ، من الأزل حتى الأبد ، إنما هي لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وليس هناك من أحدٍ غيره يستحق شيئاً منها على الإطلاق !!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ

إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

ولايَعْزُبُ عَنْهُ : لا يغيب عنه ولا يخفى عليه .

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ : مقدار أصغر نملة أو هباءة .

مُعَاجِزِينَ : مسابقين ظانين أنهم يفوتوننا .

من رِّجْزٍ : أشد العذاب وأسوئه .

إن مخاطبي القرآن الكريم لم يكونوا منكرين للقيامة ، وإنما كانوا منكرين لأن القيامة ستكون بالنسبة إليهم خزياً أبدياً وعذاباً سرمدياً لا يزول ، إذْ كانوا يجدون أنفسهم آمنين من الناحية المادية ، في هذا العالم الراهن ، مما جعلهم يستبعدون كيف سينعكس حالهم ؛ فيعودون غير آمنين إذا دخلوا العالم الآتي ؟!

بيد أن هذا القياس باطل من أساسه ؛ فدراسة العالم الراهن تدلنا على أنه مؤسس على مبادئ أخلاقية خالدة ، ومنذ أن كان الكون قد تم إنشاؤه على الأساس الأخلاقي، فلابد إذن ، أن يتقرر مصيره النهائي هو الآخر على الأساس الأخلاقي ، وليس على أي أساسٍ مزعومٍ آخر.

وإن حقيقة الحياة والكون هذه الموجودة في كل الكتب السماوية ، ورسالة القرآن تلخص في إظهار هذه الحقيقة بشكلها الخالص النقي من كل شائبةٍ ، والآن فالذين يتصدون لمعارضتها ، هم يرتكبون خسارة جد عظيمةٍ ؛ يستحقون عليها عند الله أشد

العذاب .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩ ﴾

مُزِّقْتُمْ : قطعتم وصرتم رفاتا وترابا .

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون يوهمه ما يقول .

نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ : نغيب بهم الأرض كقارون .

كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ : قطعا منها كأصحاب الأيكة .

مُّنِيبٍ : راجع إلى ربه بالتوبة والطاعة .

كان أهل مكة ينظرون إلى الرسول وأصحابه نظرة احتقارٍ وازدراء ؛ دفعتهم إلى تناول كل ما يقولون بالسخرية والاستخفاف ، والسبب الحقيقي في ذلك كان يرجع إلى عدم تيقنهم من الآخرة. إن قلوبهم كانت خاويةً من رهبة المؤاخذة في الآخرة؛ مما جعلهم ، بطبيعة الحال ، لا يأخذون الأحاديث المتصلة بشأن الآخرة بالكثير أو القليل من الجدّية .

وإن أكبر عذاب يلقاه أحد في هذا العالم هو أن يُحرم من صحة الفكر، فإن شخصاً كهذا لا يتمكن من رؤية شيءٍ ما في صورته الصحيحة ، ولا يوفق للاعتبار حتى بالحقائق الواضحة الصارخة ، وعلى سبيل المثال : لا تزال تتجه من جانب الفضاء

العلوي أحجار لا تُحصى نحو الأرض بسرعةٍ فائقةٍ ، ولو بدأت هذه الأحجار تنهال على المساكن الإنسانية ؛ لهلك الجيل البشري عن آخره في غضون أيامٍ معدوداتٍ. وهكذا يتكون الجزء الأكبر من باطن الأرض من موادٍ مصهورةٍ شديدة الحرارة (اللافا) ؛ لو أنها انفجرت يوماً على نطاقٍ غير محدودٍ ، لاحترق كل شيءٍ على وجه البسيطة واستحال رماداً ..

غير أن الله – سبحانه وتعالى – قد اتخذ في هذا الكون تدابير خصوصية تحول دون وقوع كارثةٍ شاملةٍ كهذه . وإن السماوات والأرض تزخر بأمثال هذه الآيات البينات التي تدل على مدى عجز الإنسان ، ولكن المرء إذا حُرم صحة التفكير ، لم تعد أية آية ، مهما كانت صارخة الدلالة عميقة المغزى ، تهديه إلى الصراط المستقيم .

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

أَوِّبِي مَعَهُ : سبحي أو راجعي معه التسبيح .

اعْمَلْ سَابِغَاتٍ : دروع واسعة كاملة .

وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ : أحكم صنعتك في نسج الدروع .

إن المؤمن حين يسبح لله ؛ وهو مستغرق في ذكره تعالى، فإنه يتناغم في ذلك الوقت مع الكون كله ؛ حيث يتجاوب كل شيءٍ في السماء والأرض معه في نغمات التسبيح الإلهي، بيد أن تجاوب الكون هذا يكون ، بالنسبة إلى عامة المؤمنين ، بلسان الصمت .

أما سيدنا داود – عليه الصلاة والسلام – فقد اختصه الله سبحانه بأنه إذا رفع عقيرته بالتسبيح ، أخذت الجبال والطيور في ترديد تسابيحه على نحوٍ محسوسٍ مسموعٍ .. كما علّم الله – سبحانه وتعالى – نبيه داود صناعة الحديد ، فقام – عليه

الصلاة والسلام - بتطوير فن إذابة الحديد وصوغه إلى حد أنه بدأ يعمل الدروع الخفيفة ذات الحلقات المتناسبة المتناهية في الدقة ؛ بحيث يتمكن المرء من أن يلبسها كما يلبس الثوب. ولم يكن هذا الفن قد ظهر في العالم إلى يومه ذاك، وإنما علمه الله إياه عن طريق الملائكة مباشرة .

والمؤمن يستطيع أن يبلغ أعلى درجات التطور والرقي في مجال الصناعة والعلوم ، ولكن يجب عليه أن يحصر استعمال التقدم الإنساني في دائرة الإصلاح وحده ، وأن يفعل ما يفعل آخذاً بعين الاعتبار دائماً أنه سيحضر في نهاية المطاف بين يدي ربه للحساب !!

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

غُدُوُّهَا شَهْرٌ : جريها بالغداة مسيرة شهر .

وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ : جريها بالعشي كذلك .

عَيْنَ القِطْرِ : عين النحاس فنبع ذائبا كالماء .

يَزِغْ مِنْهُمْ : يمل ويعدل منهم .

مِن مَّحَارِيبَ : قصور أو مساجد .

وَتَمَاثِيلَ : صور مجسمة من نحاس وغيره .

وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ : ثابتات على المواقد لعظمها .

لقد قام سليمان - عليه السلام - بتطوير السفر البحري والتجارة البحرية إلى حدٍ كبيرٍ جداً، بحيث أعد السفن الشراعية من الطراز الأعلى، هذا إلى جانب ما أنعم الله به عليه من جعل الرياح تجري وفق ما تشتهي سفنه البحرية في أكثر الأحيان. كما تطور في عصره فن إذابة النحاس وتحويله إلى ضروب الأواني والأمتعة تطوراً عظيماً. وقد كان سليمان - عليه السلام - يستخدم هذه المواهب والقوى غير العادية في شتى الأعمال البنائية والإصلاحية، بما فيها صناعة تلك الأشياء التي ورد ذكرها ضمن الآية الأخيرة. إن الإنسان غارق في نعم الله تعالى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ولذا ينبغي أن تشغل عاطفة الشكر لله والثناء عليه الحيز الأكبر من وجوده وحياته، ولكن هذا هو الشيء الذي لا يوجد لدى الإنسان بمقدارٍ أقل ما يكون.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

دَابَّةُ الأَرْضِ :الأرضة التي تأكل الخشب.

تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ : تأرض عصاه.

كان سيدنا سليمان متوكئاً عصاه يراقب الجن يشتغلون ببعض الأعمال الإنشائية؛ إذْ وافته منيّته، فقبض ملك الموت روحه، ولكن جسده الهامد الميت مازال قائماً على عصاه كعهده، فظل الجن مشغولين في عملهم، وهم يظنون أنه - عليه السلام - جالس بالقرب منهم يشرف عليهم كعادته، وبعد ذلك وقعت الأرضة في عصاه، فأكلتها حتى نخرت، فسقط جثمانه على الأرض، وعندها أدرك الجن أنه قد مات منذ مدةٍ من الزمان!!. ولعل هذه الواقعة أن تكون قد وقعت بهذا الشكل لتقوم دليلاً عملياً

على بطلان عقيدة الناس القائلة بأن الجن يعلمون الغيب !

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

لِسَبَإٍ : حي بمأرب باليمن .

لآيَةٌ : على قدرتنا أو عبرة وعظة .

جَنَّتَانِ : بستانان أو جماعتان من البساتين .

بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ : زكية مستلذة .

فَأَعْرَضُوا: عن الشكر أو كذبوا أنبياءهم .

سَيْلَ العَرِمِ : سيل السد أو المطر الشديد .

أُكُلٍ خَمْطٍ : ثمر مر حامض بشع .

وَأَثْلٍ : ضرب من الطرفاء .

سِدْرٍ: الضال أو شجرة النبق .

كان السبئيون من أرقى الشعوب المتمدنة في قديم الزمان ، وكانت مساكنهم باليمن الحالية ، وقد اتخذوا من مدينة مأرب عاصمةً لدولتهم ، ولقد استطاع هؤلاء إحراز تقدمٍ حضاريٍ كبيرٍ جداً في عصر ما قبل المسيح ، وظلوا حوالي ألف سنةٍ في قمة المجد والازدهار ، حيث إنهم كانوا قد بسطوا نفوذهم التجاري براً وبحراً ، وقاموا بإنشاء السدود والخزانات وفق تصميماتٍ هندسيةٍ دقيقةٍ . وقد كان لهم قرب مأرب سد كبير

كان يبلغ ارتفاعه ١٤ متراً طوله نحو ٦٠٠ مترٍ ؛ حصروا داخله مياه الجداول والممرات الجبلية ، واستخرجوا من شتى جوانبه قنواتٍ منسّقة متعددة الاتجاهات لسقي المزارع وإرواء الأراضي المرتفعة . وهكذا أضحت بلادهم تتدفق حيوية ونضارةً وخصوبةً لدرجةً أن المرء أينما توجه ببصره ، تراءت له عن يمينه وشماله سلسلة حدائق غناء وبساتين رائقة المنظر لا تكاد تنتهي.

وإنما أمكنهم إحراز كل هذا التقدم بسبب التدابير الإلهية ؛ ولذا كان ينبغي على السبئيين أن يكونوا شاكرين لله المنعم الوهاب . ولكنهم لم يلبثوا أن وقعوا ضحايا الغفلة والطغيان كما يكون حال الأمم الغنية السعيدة في الأعم الأغلب. وقد أخذ سد مأرب بعد ذلك يحدث فيه من حين إلى حينٍ ثقوب وتصدعات ، وكان ذلك بمثابة تحذيرٍ أوّلي من الله ، إلا أنهم تمادوا في غفلتهم ولم يعودوا إلى رشدهم ، حتى انكسر السد - كما تقول دائرة المعارف البريطانية - على إثر زلزال في أواخر القرن السادس الميلادي ، إلى حدٍ لم يعد معه أمل في إصلاحه وترميمه ، مما أسفر عن سيلٍ عارم جبار لا يقف دونه شيءٍ ، خرّب المنطقة من أقصاها إلى أقصاها ، يضاف إلى ذلك أن هذه المنطقة بعد ذلك - لانعدام التربة ذات الخصوبة من أراضيها - لم تعد تصلح لشيءٍ سوى الأحراش والنباتات البرية!!

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

القُرَى : قرى الشام .

قُرًى ظَاهِرَةً : متواصلة متقاربة .

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ : جعلناها على مراحل متقاربة.

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ : أخبارًا يتلهى به ويتعجب منه .

وَمَزَّقْنَاهُمْ : فرقناهم في البلاد .

المراد بالقرى المباركة منطقة الشام الناضرة الخصيبة ، فقد كانت هذه المنطقة تمتد في رحابها طوابير متلاحقة من مستوطنات جميلة رائعةٍ من قلب اليمن حتى الشام . وبذلك كان السفر من خلالها قد صار نوعاً من النزهة اللطيفة الممتعة. وقد كانت هذه البيئة ، باعتبار حقيقتها ، مثيرة للعواطف الربانية ، وكأنما نصب الله ، ثمة يافطة صامتة تقول: امشوا هنا آمنين من كل خطرٍ ، واشكروا لربكم!

غير أن السبئيين الغافلين لم يتمكنوا من قراءة هذه اليافطة الإلهية ، وبالتالي فقدوا بمسلكهم العملي الشائن ذاك استحقاقهم لتلك النعم الجليلة ، فبادوا واندثرت آثارهم بحيث أصبحوا قصةً تحكى وحديثاً يُروى؛ إذْ نزحت قبائلهم بعد خراب المنطقة من ديارها وتشتت في مختلف الجهات النائية ، حتى ضرب بهم المثل ففيل : «تفرقوا أيادي سبأ» .

إن هذه الأحداث من وقائع التاريخ المعلومة ، غير أن العالم بها حقاً هو الذي يستخلص منها درساً يجعله لا يصاب بالأشر والبطر حين يتاح له من أسباب الرخاء والسعادة نصيب ، وإنما يعده هبة الله ، فيعيش شاكراً له - سبحانه وتعالى !!

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

صَدَّقَ عَلَيْهِمْ : حقق عليهم .

سُلْطَانٍ : تسلط واستيلاء بالوسوسة والإغواء .

إن إبليس وأعوانه يرسمون خطتهم دوماً ضد مصلحة الإنسان . والمطلوب من الإنسان بهذا الصدد أن يعمل على إفشال خطتهم بتجنيب نفسه أن تقع ضحيةً لها ، إلا أن السبئيين لم يتمكنوا من إقامة الدليل على هذا الحذر والتعقل والبصيرة ، وإنما ساروا في طريق الغواية والدمار مندفعين وراء الترغيبات الشيطانية ، ولم يكن هناك سوى عددٍ يسير من أتباع الحق الذين نجحوا في هذا الامتحان .

وإن الله – عز وجل – لم يعط الشيطان أو ممثله أي سيطرةٍ فعليةٍ على أحد الناس ، وإنما أعطاه القدرة على الإغواء والوسوسة في النفوس ليس غير ، وذلك لكي يمتحن عباده. والناجح في هذا الامتحان الإلهي هو الذي يستمسك بالحق ويظل ثابتاً عليه بعيداً عن التأثر أو الميل إلى الترغيبات الشيطانية !!

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ : وزنها من نفع أو ضر .

ظَهِيرٍ: معين على الخلق والتدبير .

فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ : أزيل عنها الفزع والخوف .

الحَقَّ : قال القول الحق (الإذن بالشفاعة) .

على الرغم من أن أكثر الناس كانوا – ولا يزالون – يؤمنون بالآخرة في كل

العصور، إلا أن الشيطان مازال ينشر بينهم دائماً عقائد مزعومة تجعلهم غير خائفين ولا حذرين من عقاب الآخرة ، ومن بينها هذه العقيدة الفرضية القائلة بأن لبعض الذّوات عند الله مقاماً سامياً يمكنها من أن تشفع لمن تشاء شفاعة تقبل بالضرورة ولا تُرد أبداً !

غير أن كل عقيدةٍ من هذا النوع تقدير بخس لألوهية الله وجلاله. فما أغرب هذا الواقع وأكثره إثارة للعجب والدهشة أن الذوات التي قد استولى عليها من الشعور بعظمة الله ما يملؤها خوفاً وهلعاً دائمين لا ينقطعان ، يعتقد عبادها أنها ستكون كافيةً لنجاتهم عند الله عز وجل!!

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

أَجْرَمْنَا :اكتسبنا من الزّلات .

يَفْتَحُ بَيْنَنَا : يقضي ويحكم بيننا .

وَهُوَ الفَتَّاحُ : القاضي والحاكم .

كَلاَّ : ارتدعوا عن دعوى الشركةِ .

إن الكون عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره. وهو إلى جانب ذلك منطوٍ على حكمةٍ بالغةٍ ومعنويةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار. وإن كوناً هذا شأنه لابد أن يكون من صنع الله العزيز الحكيم. وإنه ليس بإمكان شخصٍ يدعي جاداً أن خالقه ومالكه تلك الذوات الأخرى التي قد افترضها الإنسان قديماً أو حديثاً من دون الله ، إذن، فهل ثمة

أحد غير الله الواحد يستحق مقام الكبرياء والجلالة في هذا الكون ؟ كلا!!

الحقيقة هي أن دراسة الكون تبطل كل النظريات المشركة ، فكل عقيدةٍ تتضمن الاعتراف بأي نوعٍ من العظمة لأحدٍ غير الله الواحد لا تلبث أن تتعارض مع طبيعة هذا الكون. وفي هذه الحالة فإن النظرية الصحيحة إنما هي التي تُبنى على أساس وحدانية الله ، وأما النظرية التي تقوم على التسليم بتصرف أي وجودٍ آخر من دون الله الواحد ، فهي نظرية مناقضة لذاتها !

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

كَافَّةً لِّلنَّاسِ : إلى الناس جميعا .

كل نبيٍ مارس نشاطه الدعوي على نحوٍ مباشرٍ بين بني قومه وحدهم ، وذلك ما كان ممكناً من الناحية الفعلية وهكذا قام رسول الإسلام - ﷺ - منذراً ومبشراً لقومه مباشرةً (الأنعام : ٩٢) ، ولكنه لما كان خاتم الأنبياء والمرسلين قد انتهت به الرسالات السماوية ، صار - حكماً - هو المنذر والمبشر لجميع الشعوب والأمم إلى يوم القيامة . وإنما تقع المسئولية الآن على عاتق أمته - عليه الصلاة والسلام - أن تؤدي بالنيابة عنه واجب الإنذار والتبشير تجاه الآخرين ، تماماً كما أداه الرسول تجاه مخاطبيه الأولين في عصره . وستُعد هذه العملية الدائبة امتداداً لنبوته - ﷺ - ، فالعمل الدعوي الذي تم إنجازه في حياته داخل في دائرة نبوته بصفةٍ مباشرةٍ ، وينضم إليها ما سيؤدي من الأعمال بعد وفاته بصفة غير مباشرة. إن عمل النبي يقتصر دوماً على الإبلاغ وحده ، أما تقرير مصائر الشعوب العملية فهو مما

اختص به الله تعالى نفسه في هذا العالم وفي العالم الآتي بعده على السواء!.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

مَوْقُوفُونَ : محبوسون في موقف الحساب .

يَرْجِعُ : يرد .

مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ : صدنا مكركم بنا فيهما .

أَندَادًا: أمثالا من مخلوقاته نعبدها .

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ : أخفوا الندم أو أظهروه .

الأَغْلاَلَ: القيود تجمع الأيادي إلى الأعناق .

إن إنكار الحقيقة هو الجريمة الكبرى على الإطلاق . وبما أن عاقبة هذه الجريمة لا تظهر في هذه الدنيا ، لا يزال المرء ينكر الحقيقة دونما خوفٍ ولا وجل. ولكن سينقلب حال النامس فجأة إلى حالٍ يبعث على الدهشة والرثاء معاً ، حين ستدهمهم عاقبة إنكار الحق المشئومة في الآخرة .

وسوف تصب الجماهير هناك أغلظ اللعنات على أكابرها الذين كانوا موضوع

فخرها في الحياة الدنيا ، باعتبارهم مسئولين عن ضلالها وضياعها. وسيرد عليهم أولئك الكبراء قائلين : لا تلقوا بالتبعة كلها علينا تخليصاً لأنفسكم من مرارة الشعور بالندم والحسرة. إذْ لم نكن نحن الذين أضلوكم ، بل إنما كانت أهواؤكم هي التي انحرفت بكم عن سواء السبيل ، فما وقفتم إلى جانبنا إلا لكون ما ندعو إليه يتفق وأهواءكم ، حيث كنتم تبتغون ديناً يمكن صاحبه من الحصول على شرف التدين بدون تكليفٍ ولا عناءٍ ولا حاجةٍ إلى تغيير النفس وإصلاح العمل. وهو الذي هيأناه لكم فتلقيتموه بالقبول . إذن فأنتم بأيديكم أنفسكم جعلتم في أعناقكم هذه الأغلال التي صنعناها ، وإلا فلم نكن نملك قدرةً على أن نطوّقها إياكم!!

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

مُتْرَفُوهَا : متنعموها وقادة الشر فيها .

وَيَقْدِرُ : يضيق على من يشاء بحكمته .

زُلْفَى : تقريباً .

لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ : لهم الثواب المضاعف .

فِي الْغُرُفَاتِ : المنازل الرفيعة العالية في الجنة .

مُعَاجِزِينَ : مسابقين ظانين إنهم يفوتوننا .

مُحْضَرُونَ: تحضرهم الزبانية إلى جهنم .

وَيَقْدِرُ لَهُ : يضيق على من يشاء بحكمته .

إن الذين تتوافر لديهم أسباب القوة والثروة ، يرتقون إلى مقام الكبرياء في العالم الراهن، وهذا الشيء يولد في أنفسهم ثقةً كاذبةً. وأمثال هؤلاء حين يتم تخويفهم من الآخرة لا يعطونها أهميةً تُذكر ؛ إذ يصعب عليهم التأكد من أن الله سيُذلهم في الآخرة ، مع ما أعطاهم في هذه الدنيا من العز والجاه والكرامة !

وهذه الثقة الكاذبة هي التي كانت - ولا تزال - العقبة الكئود دون إيمان الكبار بدعوة الحق في كل عصرٍ ومصرٍ ، حيث إن كبار العصر إذا احتقروا شيئاً ما ، عاد الصغار هم الآخرون ينظرون إلى ذلك الشيء بعين الاحتقار، وهكذا يحرم كل من العامة والخاصة من تلقي الحق بالقبول .

إن الثروة وأسباب الحياة الدنيا كلها امتحان وليس بإنعامٍ، فكثرة المال والأسباب الدنيوية لدى أحد الناس ليست علامة على كونه من المقربين ، ولا قلتها لدى الآخر علامة على أنه من غير المقربين. وإن مقام التقرب والزلفى عند الله إنما يحظى به شخص يقيم الدليل على أنه قد عاش فيما أوتي من مالٍ ومتاعٍ ذاكراً لله، مراقباً إياه في كل حركاته وسكناته ، وواقفاً بنفسه عند الحدود التي قررها الله سبحانه وتعالى ، فأمثال هؤلاء هم الذين سيعتبرون في الآخرة أهلاً لإنعامات الله الأبدية !

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم

مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أَنْتَ وَلِيُّنَا : أنت الذي نواليه .

إن الملائكة لا تُرى للناس ، وإنما هم الأنبياء والمرسلون الذين أخبروا الناس بوجود الملائكة. وقد كان المقصود من هذا الإخبار أن يستشعروا عظمة الله وجلاله حق الاستشعار، فيقبلون بكيانهم كله على عبادته وتمجيده سبحانه وتعالى، ولكن الشيطان ألقى في قلوب الناس بطريقةٍ عجيبةٍ أن الحصول على قرب الله مباشرةً يكاد يكون أمراً مستحيلاً، لذا ينبغي لهم أن يعبدوا الملائكة ؛ توسلاً بذلك للاقتراب من الله! ومن هنا بدأت تنصب تماثيل منحوتة للملائكة في شتى أنحاء المعمورة ، وراح الناس يقيمون أمامها طقوس العبادة والتقديس . وما عقيدة تعدد الآلهة والإلاهات لدى الشعوب الوثنية إلا صورة مشوهة لتأليه الملائكة ، فالملك الذي كان موكلاً بالمطر ، اعتبروه إله المطر، والذي كان موكّلاً بالهواء ، حسبوه إلهاً للهواء، وهكذا.. وستتبرأ الملائكة في الآخرة من أمثال هؤلاء العباد وعبادتهم، وبالتالي لن ينالهم هناك من جانب الله ولا من جانب الملائكة نصر ولا عون ، وإنما سيظلون مخذولين دون سندٍ ولا معينٍ إلى الأبد!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

أَنْتَ وَلِيُّنَا : أنت الذي نواليه .

إِفْكٌ مُّفْتَرًى : كذب مختلق

مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ : عشر ما أعطيناهم من النعم .

كَانَ نَكِيرِ: إنكاري عليهم بالتدمير .

لقد جاء القرآن بأدلةٍ وبراهين في منتهى الوضوح والجلاء . ومع أن مخاطبيه الأول كانوا عاجزين عن مقاومته بقوة الدليل ، إلا أنهم نجحوا في صدّ الجماهير التابعة لهم عن دعوته ، وإنما كان السر الوحيد في نجاحهم ذاك ، يكمن في أنهم جعلوه "مشبوهاً" في أعين الناس قائلين : إنه لا يتفق مع ما كان عليه أسلافنا الكرام ! وأما ما كان يتميز به القرآن من أدبٍ رفيعٍ وأسلوب بديعٍ معجز لا سبيل إلى إنكاره أو تجاهله ، فقد صرفوا اهتمام الناس عنه زاعمين لهم بأن هذا لا يخرج عن كونه مظهراً من مظاهر البراعة الأدبية وسحر البيان. دون أن يكون له علاقة ما بالوحي الإلهي. إنه قوة قلمٍ وليس بقوة علم الحقيقة !

إنه لمن أغرب تجارب التاريخ البشري أن التعصب كان دوماً - ولا يزال - أعظم سلطاناً على عقول الناس وأشد تحكماً في نفوسهم من الدليل والبرهان !! كان على مخاطبي القرآن الكريم ، إذْ هم أبوْا إلا إنكاره ومعارضته ، أن يلجؤوا إما إلى أدلةٍ عقليةٍ تفنّده ، أو إلى كتابٍ سماوي يستمدون منه نصاً ينقض دعواه، غير أنهم كانوا يفتقدون كلا هذين الشيئين معاً ، مضافاً إلى ذلك أنهم كانوا متخلفين جداً عن الشعوب الأخرى حتى في مجال التقدم المادي والرفاهية الدنيوية. وإن أناساً هذا شأنهم لئن تناولوا دعوة الحق بالرفض والإنكار فإنما يرجع سبب ذلك إلى دواعي التعنت والعنجهية ، وليس إلى مقتضى العقل والمنطق !.

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

من جِنَّةٍ : من جنون .

وقف المعاصرون للنبي - ﷺ - تجاه دعوته موقف الرفض والإنكار. ولكن موقفهم ذاك لم يكن يعتمد على شيء سوى العناد والتعصب . والحقيقة هي أنهم لو فكروا يوماً خالي الأذهان من مشاعر العناد والتعصب - سواء على مستوى فردي أو جماعي - لوجدوا أن رسولهم ليس برجلٍ مجنون ، ولرأوا حياته السابقة التي قضاها بين أظهرهم تشهد بجديته وإخلاصه ولهجته الواهة المؤثرة تدل على أن ما يجري على لسانه هو بعينه ما يختلج في فؤاده ، ولوجدوا في أسلوب كلامه الحكيم شهادةً داخليةً ناطقة بصدقه وصحته، وفي كونه لا يطلب من الناس أي أجر أو تعوضٍ عن دعوته وبرهاناً صارخاً على أنه إنما قام بهذا العمل خالصاً لوجه الله ، وليس لأجل أية منفعةٍ أو تجارةٍ ذاتيةٍ ، ففي ضوء التأمل النزيه والتفكير المحايد كان بإمكان القوم أن يدركوا أن لهفته - عليه الصلاة السلام - ليست بلهفة الجنون ، بل مصدرها أن الخطر الذي نهض لإنذار الآخرين منه ، هو يراه رأي العين يدنو ويقترب بسرعةٍ والناس عنه غافلون ! ولكن القوم إذا لم يكونوا جادين بشأن دعوة الحق ، فقد عجزوا - وبطبيعة الحال - عن أن يبصروا هذه الحقائق الواضحة الجليلة !!

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يَقْذِفُ بِالْحَقِّ : يرمي به الباطل فيدمغه .

لقد أنشئ هذا العالم بالحق ، حيث القوة كلها فيه إلى جانب الحق ، كما أن كل الدلائل هنا تؤيد الحق وتدعمه . وأما الباطل فلا يملك من حيث الحقيقة الواقعة أي قوةٍ ولا دليلٍ أو برهانٍ . وقد كان ينبغي، والحالة هذه أن يكون الحق هنا هو الغالب السائد ومرفوع الراية دائماً ، وبالمقابل يصير الباطل عديم الوزن فاقد الأهمية مغلوباً على أمره في كل مكانٍ ، ولكن هذا لا يحدث فعلاً ، إذْ ليس الحق في هذا العالم من القوة بحيث يمكنه أن يمحو الباطل بحكم قوته الذاتية ، ولا الباطل من التفاهة بحيث لا يتمكن شخص ما من أن يفوز بالمجد والرفعة على أساسٍ منه!

وهذه الواقعة سوف تظهر في أكمل صورها يوم تقوم الساعة ، ولكن الله قد يظهرها، متى يشاء ، ولو بصورةٍ جزئيةٍ في هذه الدنيا أيضاً ، كي تكون عبرةً للناس ، ولقد كانت غلبة الإسلام في القرن الأول إظهاراً جزئياً من هذا القبيل ، ومن ثم فحين فُتحت مكة ، وانتصر التوحيد على الشرك انتصاراً حاسماً ، كان رسول الله - ﷺ - تتردد على لسانه إذْ ذاك هذه الآية الكريمة: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ !.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

فَزِعُوا : خافوا عند الموت أو البعث .

فَلاَ فَوْتَ : فلا مهرب ولا نجاة من العذاب .

مكَانٍ قَرِيبٍ: موقف الحساب .

التَّنَاوُشُ : تناول الإيمان والتوبة .

مَّكَانٍ بَعِيدٍ: هو الآخرة .

وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ : يرجمون بالظنون .

بِأَشْيَاعِهِم : بأمثالهم من الكفار .

مُّرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

إن المرء إذْ يتناول الحق بالإنكار في العالم الراهن ، لا يتعرض من فوره لمصيره المحتوم. وهذا الوضع يجعله عنيداً جسوراً على إنكار الحق، فهو لا يعتبر دعوة الحق جديرةً بالاهتمام الجدي ، ويذكرها بألفاظٍ مفعمةٍ بالسخرية اللاذعة والازدراء الشديد، ويرفضها كلما عرضت عليه بعدم الاكتراث واللامبالاة ، ويعلق عليها بأسلوب هزلي عابثٍ كما لو أنها لا تستحق أن يقام لها حساب ما !

على أن الأمر سيتبدل فجأةً غير الأمر، حين سينتهي نظام هذا العالم الراهن ، وسيرى المرء وقتئذٍ أن ما قد أهمله الإهمال كله، كان هو الشيء الأهم والأعظم قيمةً في هذا الوجود، وعندها سيتبخرّ كل عناده ويتلاشى بطره وكبرياؤه ، وهو يسارع إلى الاعتراف بالحق الذي كان لا يعده خليقاً بأدنى عنايةٍ ولا اهتمام في الحياة الدنيا، ولكن الوقت الآن سيكون قد فات، وسيقال له: إن الاعتراف كانت له قيمة في عالم الغيب ، أما في عالم الشهود هذا فلا قيمة للاعتراف البتة !

«الشك المريب» هو الشك الباعث على التردد والحيرة والارتياب ، وهذا الوصف يصوره حالة المنكرين النفسية، فالحق الذي كان يُعرض عليهم في الدنيا ، كان من حيث اللغة والبيان قوياً لدرجة أنهم لم يكونوا يجدون أنفسهم قادرين على رده بواسطة الدليل

والبرهان ، ولكنهم - مع ذلك - لم يتمكنوا من توطين أنفسهم على قبول هذا الحق ؛ لكونه لا يتفق مع شاكلتهم الفكرية. وقد أصابهم هذا الوضع الثنائي أو المزدوج بنوعٍ من التذبذب الداخلي المتصل ، إلى أن جاء ملك الموت ، فرفع عن أعينهم الغطاء الذي كان المفروض أن يرفعوه بأيديهم أنفسهم ، إلا أنهم لم يوفقوا إلى ذلك!